



الإسراف والتبذير

المفهوم - الأسباب - النماذج - الآثار
- الواقع - المعالجة

أ. د / زيد بن محمد القرني

المستشار الاقتصادي

وعضو هيئة التدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية



بسم الله الرحمن الرحيم

الإسراف والتبذير

(المفهوم - الأسباب - النماذج - الآثار - الواقع - المعالجة)

مفهوم الإسراف والتبذير:

المعنى اللغوي للإسراف والتبذير هو مجاوزة الحد^(١) وقد ذكر القليوبي هذا المعنى اللغوي في تعريف الإسراف، ولكن بعض العلماء خص استعمال الإسراف بالنفقة والأكل. يقول الجرجاني في تعريفاته: "الإسراف تجاوز الحد في النفقة. قيل: أن يأكل الرجل ما لا يحل له أو يأكل ما يحل له فوق الاعتدال ومقدار الحاجة. وقيل: الإسراف تجاوز الكمية فهو جهل بمقادير الحقوق. قيل: هو إنفاق المال الكثير في الغرض الخسيس^(٢)".

مما سبق نستطيع القول أن الإسراف هو تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان أو قول، وإن كان في الإنفاق أشهر.

وكما يكون الإسراف في الشر يكون في الخير، كمن تصدق بجميع ماله كما في قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾^(٣).

والإسراف كما يكون من الغني، فقد يكون من الفقير أيضاً، لأنه أمر نسبي.. والإسراف يكون تارة بالقدر، ويكون تارة بالكيفية، ولهذا قال سفيان الثوري - رحمه الله -: "ما أنفقت في غير طاعة الله فهو سرف، وإن كان قليلاً"^(٤)، وكذا قال ابن عباس رضي الله عنه: "من أنفق درهماً في غير حقه فهو سرف"^(٥). أما التبذير فهو تفريق المال وإنفاقه في السرف. قال تعالى: ﴿وَلَا تُبْذِرْ تَبْذِيرًا﴾^(٦).

(١) ينظر: ابن منظور - لسان العرب جـ ١١/٤٨. والفيروز أبادي - القاموس المحيط، جـ ٤/١٥٦.

(٢) ينظر: القليوبي - حاشية منهج الطالبين، دار إحياء الكتب العربية، عيسى الحلبي، د.ت. جـ ٣/٢٤٨ وابن عابدين - حاشية رد المحتار، جـ ٥/٤٨٤، والجرجاني - التعريفات، ص ٣٨.

(٣) الآية ١٤١ / سورة الأنعام، ينظر: تفسير القرطبي جـ ٧/١١٠، والمغني ابن قدامة جـ ٢/٧٠٦.

(٤) الراغب الأصفهاني - المفردات في غريب القرآن، ص ٢٣٠.

(٥) القرطبي - الجامع لأحكام القرآن، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٨٧م، جـ ١٣/٧٢.

(٦) الآية ٢٦ / سورة الإسراء..



وخصه بعضهم بإنفاق المال في المعاصي، وتفريقه في غير حق^(٧). ويعرف بعض الفقهاء التبذير بأنه: "عدم إحسان التصرف في المال، وصرفه فيما لا ينبغي، وأما صرف المال إلى وجوه البر فليس تبذير، وصرفه في الأطعمة النفيسة التي لا تليق بحاله تبذير^(٨)".

وعلى هذا فالتبذير أخص من الإسراف؛ لأن التبذير يستعمل في إنفاق المال في السرف أو المعاصي، أو غير حق، والإسراف أعم من ذلك، لأنه مجازة الحد، سواء أكان في الأموال أم غيرها، كما يستعمل الإسراف في الإفراط في الكلام أو القتل وغيرهما. وقد فرق ابن عابدين بين الإسراف والتبذير من جهة أخرى، فقال: "التبذير يستعمل في المشهور بمعنى الإسراف، والتحقيق أن بينهما فرقاً وهو أن الإسراف: صرف الشيء فيما ينبغي زائداً إلى ما ينبغي.

والتبذير: صرف الشيء فيما لا ينبغي^(٩).

مثله ما جاء في "أدب الدنيا والدين": "التبذير الجهل بمواقع الحقوق، والسرف الجهل بمقادير الحقوق"^(١٠) ويقول الراغب الأصفهاني: "إن التبذير في الحقيقة أقبح من الإسراف لأن بجانبه حقاً مضيعاً، ولأنه يؤدي بصاحبه إلى أن يظلم غيره، لهذا قيل أن المبذر أقبح لأنه جاهل بمقدار المال الذي هو سبب استبقاء الناس"^(١١).

وعليه فإن الإسراف والتبذير بينهما علاقة عموم وخصوص، تخضع لقاعدة ((إذا اجتمعا اتفقا، وإذا افترقا اجتمعا)).

(٧) ينظر: ابن منظور - لسان العرب، جـ ٤/ ٥٠.

(٨) ينظر: النووي - تحرير ألفاظ التنبيه، تحقيق: عبدالغني الدقر، دار القلم، دمشق ١٤٠٨هـ - ص ٢٠٠.

(٩) ابن عابدين - حاشية رد المحتار، جـ ٥/ ٤٨٤.

(١٠) أبو الحسن الماوردي - أدب الدنيا والدين، تحقيق مصطفى السقا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨هـ - ص ١٨٧.

(١١) الراغب الأصفهاني - الذريعة إلى مكارم الشريعة، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة؛ ١٣٩٣هـ، ص ٢١٦.



أسباب الإسراف والتبذير

وللإسراف والتبذير أسباب وبواعث توقع فيه، وتؤدي إليه، ونذكر منها^(١٢):

١- جهل المسرف بتعاليم الدين الذي ينهى عن الإسراف بشتى صورته، فلو كان المسرف مطلعاً على القرآن الكريم والسنة النبوية لما اتصف بالإسراف الذي نهى عنه ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾^(١٣) فعاقبة المسرف في الدنيا الحسرة والندامة ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾^(١٤) وفي الآخرة العذاب الأليم والعذاب الشديد ﴿وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِنْ يَحُمُومٍ * لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾^(١٥). ومن نتيجة جهل المسرف بتعاليم الدين مجاوزة الحد في تناول المباحات، فإن هذا من شأنه أن يؤدي إلى السمنة وضخامة البدن وسيطرة الشهوات، وبالتالي الكسل والتراخي، مما يؤدي به إلى الإسراف، جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: "إياكم والبطنة في الطعام والشراب، فإنهما مفسدة للجسد، مورثة للسقم، مكسلة عن الصلاة، وعليكم بالقصد فيهما، فإنه أصلح للجسد، وأبعد من السرف."^(١٦).

٢- النشأة الأولى: فقد يكون السبب في الإسراف إنما هي النشأة الأولى، أي الحياة الأولى^(١٧) ذلك أن الفرد قد ينشأ في أسرة حالها الإسراف والبذخ، فما يكون منه سوى الاقتداء والتأسي، ولعلنا ندرك شيئاً من أسرار دعوة الإسلام وتأكيده على ضرورة اتصاف الزوجين والتزامهما بشرع الله وهديه، قال تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ

(١٢) ينظر: السيد محمد نوح - "الإسراف أسبابه وآثاره وعلاجه"، مجلة الاقتصاد الإسلامي، بنك دبي الإسلامي، دبي، ع ٥٠، محرم ١٤٠٦ هـ، ص ١٧-٢٥ ورفعة أحمد الغامدي - "أسباب الإسراف ومضاره وموقف الإسلام منه" مجلة الرابطة، مكة، ع ٢٨١، ذو الحجة ١٤٠٨ هـ ص ٣٨.

(١٣) الآية/ ٣١ سورة الأعراف.

(١٤) الآية/ ٢٩ سورة الإسراء.

(١٥) الآيات ٤١ - ٤٥ سورة الواقعة.

(١٦) ينظر: ابن مفلح المقدسي - الآداب الشرعية والمنح المرعية، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، ١٣٩١ هـ - ج ٣/ ٢٠١.

(١٧) جريدة الجزيرة - "أين التريبة الاقتصادية؟" لا تعودوهم على الإسراف"، حوار، ع ٧٠٤٦، ١٤١٢/٧/٩ ص ٩.



وَأِمَائِكُمْ^(١٨). وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، وجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك"^(١٩).

٣- الغفلة عن طبيعة الحياة الدنيا وما ينبغي أن تكون، وقد يكون السبب في الإسراف إنما هي الغفلة عن طبيعة الحياة الدنيا وما ينبغي أن تكون، ذلك أن طبيعة الحياة الدنيا أنها لا تثبت ولا تستقر على حال واحدة.

والواجب يقتضي أن نضع النعمة في موضعها، وندخر ما يفيض عن حاجتنا الضرورية اليوم من مال وصحة إلى وقت آخر.

٤- السعة بعد الضيق: وقد يكون الإسراف سببه السعة بعد الضيق، أو اليسر بعد العسر، ذلك أن كثيراً من الناس قد يعيشون في ضيق أو حرمان أو شدة أو عسر، فإذا هم صابرون محتسبون، وقد يحدث أن تتبدل الأحوال فتكون السعة بعد الضيق، أو اليسر بعد العسر، وحينئذ يصعب على هذا الصنف من الناس التوسط أو الاعتدال فينقلب على النقيض تماماً، فيكون الإسراف والتبذير.

٥- صحبة المسرفين: وقد يكون السبب في الإسراف إنما هو صحبة المسرفين ومخالطتهم، ذلك أن الإنسان غالباً ما يتخلق بأخلاق صاحبه وخليله، إذ إن المرء كما قال صلى الله عليه وسلم: "على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل"^(٢٠).

٦- حب الظهور والتباهي^(٢١): وقد يكون الإسراف سببه حب الشهرة والتباهي أمام الناس رياء وسمعة والتعالي عليهم، فينظر لهم أنه سخي وجواد، فينال ثنائهم ومدحهم؛ لذا ينفق أمواله في كل حين وبأي حال، ولا يهتم أنه أضاع أمواله وارتكب ما حرم الله..

٧- المحاكاة والتقليد: وقد يكون سبب الإسراف محاكاة الآخرين وتقليدهم حتى لا يوصف بالبخل فينفق أمواله كيفما كان من غير تبصر أو نظر في العاقبة التي سينتهي إليها^(٢٢).

(١٨) الآية ٣٢/ سورة النور.

(١٩) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، ينظر: البخاري - صحيح البخاري، المكتبة الإسلامية، تركيا، توزيع مكتبة العلم، جدة، ١٩٨١م، جـ ٩/٧.

(٢٠) أخرجه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن غريب وأحمد والحاكم وقال صحيح ووافقه الذهبي وحسنه الألباني، ينظر: الألباني - صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير، رقم ٣٥٣٩.

(٢١) جريدة المدينة، (الإسراف والتبذير في المناسبات)، تحقيق، ع ٨٩٧٩، ١٤١٢/٦/٩هـ، ص ٢.

(٢٢) مجلة الدعوة - "الإسراف والتبذير من المسؤول"، تحقيق، ع ١٢٥٠، ١٤١٠/١٢/٢٧هـ، ص ٢٠-٢٣.



٨- الغفلة عن الآثار المترتبة على الإسراف والتبذير: وقد يكون السبب في الإسراف والتبذير إنما هو الغفلة عن الآثار المترتبة عليهما، ذلك أن للإسراف آثارًا ضارة، وللتبذير عواقب مهلكة، وقد عرف من طبيعة الإنسان أنه غالبًا ما يفعل الشيء أو يتركه، إذا كان على ذكرٍ من آثاره وعواقبه، أما إذا غفل عن هذه الآثار، فإن سلوكه يختل وقد تبين من خلال دراسة ميدانية^(٢٣) عن المشكلات الاقتصادية التي تواجه الشباب أن معظم التعبيرات الحرة من أفراد عينة البحث كانت تعبر عن التبذير والإسراف في غير مكانه بنسبة ٢,٨% ومن نماذج تعبيراتهم الحرة "إنني مبذر أذهب إلى المحل وأنا لا أحدد ما سأشتري"، "عدم التوازن في النفقات وعدم تنظيم الصرف"، "أحيانًا أضع مالاً في غير مكانه الصحيح"، "عدم قدرتي على حفظ نفسي من صرف المال"، هذه التعبيرات تبرز حاجة الشباب خاصة إلى المنهج الإسلامي في معالجة ظاهرة الإسراف والتبذير وإنفاق المال في كل ما هو شرعي وغير ضار.

(٢٣) وليد شلاش شبير - مشكلات الشباب، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٩هـ، ص ٢٨٠.



نماذج من الإسراف والتبذير

يذكر الإمام محمد بن الحسن الشيباني رحمه الله صوراً من الإسراف فيقول: "من الإسراف الأكل فوق الشبع، ومن الإسراف الاستكثار من المباحات والألوان، ومن الإسراف أن يضع على المائدة من ألوان الطعام فوق ما يحتاج إليه للأكل، ومن الإسراف أن يأكل وسط الخبز وأن يدع حواشيه، أو يأكل ما انتفخ من الخبز كما يفعله بعض الجهال يزعمون أن ذلك ألد، ومن الإسراف التمسح بالخبز عند الفراغ من الطعام من غير أن يأكل ما يتمسح به، ومن الإسراف إذا سقط من يده لقمة أن يتركها.. ثم يقول رحمه الله: وأمر اللباس نظير الأكل في جميع ما ذكرناه^(٢٤).

ويذكر أبو الحسن الماوردي رحمه الله نماذج من التبذير فيقول: "من التبذير أن ينفق ماله فيما لا يجدي عليه نفعا في دنياه ولا يكسبه أجراً في آخره، بل يكسبه في دنياه ذمًا ويحمل إلى آخرته إثمًا، كإنفاقه في المحرمات وشرب الخمر وإتيان الفواحش وإعطائه السفهاء من المغنين والملهين والمساخر والمضحكين، ومن التبذير أن يشغل المال بفضول الدور التي لا يحتاج إليها وعسائه لا يسكنها أو يبينها إلى أعدائه ولخراب الدهر الذي هو قاتله وسالبه، ومن التبذير أن يجعل المال في الفرش الوثيرة والأواني الكثيرة الفضية والذهبية التي تقل أيامه ولا تتسع للارتفاق بها^(٢٥) ثم يقول: وكل ما أنفقه الإنسان مما أكسبه عند الله أجراً ويرفع له إليه منزلة، أو يكسب عند العقلاء أهل التميز حمداً فهو جود وليس بتبذير وإن عظم وكثر، وكل ما أنفقه في معصية الله التي تكسبه عند الله إثمًا وعند العقلاء ذمًا فهو تبذير وإن قل ونزر^(٢٦).

وليس واقع العالم الإسلامي ببعيد عن هذه النماذج وتلك الصور^(٢٧). ونذكر فيما يلي نماذج أخرى من التبذير والتبديد، وأشكالا من الإسراف والسفه، وألوانا من الهدر والضياع، نتيجة السلوك الاستهلاكي غير الرشيد في واقع العالم الإسلامي، ومن ذلك^(٢٨):

(٢٤) محمد بن الحسن الشيباني - الكسب، ص ٧٩-٨٣.

(٢٥) أبو الحسن الماوردي - نصيحة الملوك، تحقيق خضر محمد خضر، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٤٠٣هـ - ص ٣٦.

(٢٦) أبو الحسن الماوردي - نصيحة الملوك، ص ٢٦.

(٢٧) ينظر: مجلة المقتطف - "تبذير الشرق وتبذير الغرب" - بيروت، ١٩٧٦م، ع ٥٤، ص ١١٠-١١٢، و ع ٦، ص ١٢٨، ١٣١، مجلة الدعوة - "المبذرون"، تحقيق، ع ١٠٣٠، ١٥/٦/١٤٠٦هـ، ص ١٤-٢٠، ومجلة لواء الإسلام - "الإسراف في الأفراح والمآتم"، ع ١٠، جمادى الآخرة ١٣٧٧هـ، ص ٦٥٢-٦٥٣.



١- الخمر والمخدرات والدخان: هذه صنوف استهلاكية ضارة من شأن الإنفاق عليها أن يستنفد جانباً من القوة الشرائية العامة، هذا الجانب يُعدّ ضياعاً، بمعنى أنه كان سيصرف على الضروريات لو لم يصرف عليها. ونجد العالم الإسلامي يستهلك مواد مخدرة بمئات الملايين من الدولارات^(٢٩)، وقد أوضحت الدراسات التي شاركت فيها منظمة الصحة العالمية أنه في الوقت الذي بدأ فيه التدخين يقل في بعض أجزاء العالم المتقدم بفضل زيادة الوعي الصحي في هذه البلدان، فإنه من المؤسف أن تعاطي التبغ مثلاً ازداد في البلدان النامية ومنها العالم الإسلامي وبلغت نسبة الزيادة في آسيا ٣٠٪، أما في أفريقيا فقد زادت نسبة تعاطي التبغ بدرجة بلغت ١٧٠٪^(٣٠).

وفي دراسة أخرى أعدها أحد الباحثين أوضح فيها أن حجم الأموال التي تنفق على عمليات الاتجار بالمخدرات في الوطن العربي تجاوز مبلغ ٥٠ مليار دولار سنوياً^(٣١).

٢- الإفراط في الطعام: إن الإنسان إذا أكثر من الطعام لم يستطع له هضمًا، حيث يصاب بالتخمة وعسر الهضم، وقد يحدث أن تصاب المعدة بالانتعاش والتمدد نتيجة الإفراط في تناول الطعام فيفقد المرء شهيته للأكل إن تناول طعاماً لم يستطع له هضمًا، فقد يصاب نتيجة لذلك بالإسهال أو الإمساك، كما أن الإسراف في الطعام يؤدي إلى البدانة ثم يتعرض الإنسان لأمراض القلب وارتفاع الضغط وأمراض الكلى والسكر.

ولا تقتصر مشكلة الإسراف في الطعام على استهلاكه، بل تمتد لتشمل بعض السلوكيات المرتبطة به، وفي هذا الصدد تشير بعض الدراسات التي أجريت في الكويت أن ما يلقي ويتلف من مواد غذائية ويوضع في صناديق القمامة كبير إلى الحد الذي قد تبلغ نسبته في بعض الحالات

(٢٨) ينظر: عبدالمغني سعيد - نحو الرشد الاقتصادي، ص ١٧٤-١٨٢، و د. نادر فرجاني - هدر الإمكانيات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٥م، ص ٤٩-٧٩، ومحمد عبدالقادر الفقي - "الإسراف وتأثيره على البيئة" مجلة منار الإسلام، الإمارات، ٨٤، شعبان ١٤٠٩هـ، ص ٣٨-٦٥.

(٢٩) ينظر: لولوة صالح آل علي - الوقاية الصحية على ضوء الكتاب والسنة، دار ابن القيم، الدمام ١٤٠٩هـ، ص ٥٩١/٥٤١/٤٨٩، وجريدة الندوة - "المخدرات الخطر القاتل": العالم العربي يستهلك مواد مخدرة بمئات الملايين من الدولارات"، تحقيق ع ٩١٦٤، ١٦/٨/١٤٠٩هـ، ص ١١.

(٣٠) مجلة النور - "الاستعمار السجائري"، تحقيق الكويت، ع ٧٢، صفر ١٤١٠هـ، ص ٦-١٠.

(٣١) مجلة الاقتصاد الإسلامي - "٥٠ مليار دولار سنوياً تُنفق في الوطن العربي على المخدرات"، دبي، ع ١٣١، شوال ١٤١٢هـ، ص ١٨.



٤٥% من حجم القمامة. وفي مدينة الرياض أظهرت دراسة أعدتها أمانة مدينة الرياض عن نفايات المدينة أن كمية النفايات اليومية لكل فرد من نفايات المواد الغذائية تبلغ ١٠٦٠ جراماً، والملاحظ في دول الخليج العربي أن كمية المواد الغذائية التي تلقى في القمامة كبيرة جداً بالمقارنة مع غيرها من دول العالم^(٣٢).

٣- الإعلان والعادات الشرائية الخاطئة: من أهم مظاهر الضياع في الاستهلاك، الخسارة الاقتصادية الناجمة عن الجهل والخرافة في شراء الضروريات. فالعادات الشرائية تميل لأن تكون ثابتة مهما كانت خاطئة، وغالباً ما يقوم استهلاك الفرد على أساس عشوائي مرتجل لأعلى أساس رشيد، إذ هو يستند على عادات شرائية غالباً ما تكون خاطئة، ويستمر الفرد في أدائها؛ لأنه وجدها هكذا أو بدافع التقليد للآخرين. ومن أوضح الأمثلة للعادات الشرائية الخاطئة: أن الناس يشتررون التفاح للونه الأحمر وليس لقيمته الغذائية، كما يفضلون الخبز الأبيض والأرز المقشور على الخبز الأسمر والأرز غير المقشور وهما الأفضل من الوجهة الغذائية، فإذا أمكننا بأية طريقة تعليم المستهلك الأصناف التي تعطي قيمة غذائية قصوى أقل نفقة لاقتصدنا الكثير من العمل الإنتاجي، هذا ما تناوله بالتفصيل هنري هارب^(٣٣) في كتابه "تعليم المستهلك". ويُعدّ الإعلان مسئولاً إلى حد كبير عن تكوين مثل هذه العادات الشرائية الخاطئة.

فقد يعتمد المعلنون إلى تشكيك الناس في سلع قديمة أو سلع جديدة في حوزتهم لم تبلى أو تستنفذ بعد، لينصرفوا عنها إلى شراء سلع جديدة وهذا أيضاً يُعدّ ضياعاً في الموارد الاستهلاكية. ومن خلال الدراسات والتحقيقات^(٣٤) التي أجريت تبين أن الإعلانات التجارية تمارس دوراً كبيراً في خداع المستهلك، وفي دفعه إلى المزيد من الشراء إلى أشياء كثيرة لا حاجة إليها فعلاً، وهذا هو الإسراف بعينه، بل وتمارس الإعلانات دوراً في تغليب البواعث الوجدانية

(٣٢) محمد عبدالقادر الفقي - "الإسراف وتأثيره على البيئة"، ص ٥٥ - ٥٦.

(٣٣) H. Harapp - The Education of The Consumer, Mc Graw - Hill New York, 1950, p. 60- 85.

(٣٤) ينظر: د. نعيم أبو جمعة - "الخداع الإعلاني وأثره على المستهلك في دولة الكويت"، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، جامعة الكويت، الكويت، ع ٥٠، شعبان ١٤٠٧هـ، ص ١٥ - ٧٣ وجريدة اليوم - "الإعلانات التجارية والإسراف" تحقيق ع ٦٨٣٢، ١٤١٢/٨/٢٥هـ، ص ١١.



كالتقاليد وحب التميّز والزهو والطموح والدهشة وما إلى ذلك من خلجات النفس التي تسعى الإعلانات لإثارتها في الإنسان.

٤- جنون الأزياء وتعدد أنماط المنتجات: إن تغيرات الأزياء والنماذج المتعددة إن هي إلا تقلبات مفتعلة لحمل المستهلكين على الشراء، مع أنها لا تعكس رغباتهم، وقد تتنافر مع أذواقهم إلى حد كبير، وهم إذ يقبلون عليها فإنما يفعلون ذلك تحت تأثير الحملات الإعلانية الواسعة النطاق التي تولد في نفوسهم شعوراً بأنهم يكونون متأخرين إذا لم يقبلوا عليها. وتبدو هذه الظاهرة بوضوح في أزياء النساء، كما امتدت أيضاً إلى السيارات وأجهزة المذياع والتلفزيون والأثاث وبعض السلع التموينية^(٣٥) إذ أصبح الأغنياء يغيرون هذه الأشياء سنوياً ليتمشوا مع الطراز الحديث، والمستهلك قد يدرك بعض السلع قبل أن يحصل على الفائدة المرجوة منها، أو قبل أن تصبح غير صالحة للاستعمال. وهذا ما يعبر عنه اقتصادياً بنقص في جملة الإشباع العام، وهو ولا شك من أبرز نواحي الضياع في النظام الاقتصادي.

(٣٥) ينظر: ياسر عبد الحميد الخطيب - سيكولوجية المستهلك السعودي وتصرفاته الشرائية وأثر ذلك على السياسات التسويقية في قطاع السيارات، رسالة دكتوراه مقدمة لقسم إدارة الأعمال، كلية التجارة، جامعة القاهرة، القاهرة، ١٤٠٢هـ، ص ٣١٠-٣٤٠، غير منشورة، و د. صديق محمد عفيفي - "تأثير اعتبارات الموضة على سلوك المستهلك - دراسة ميدانية في مدينة القاهرة"، مجلة المحاسبة والإدارة والتأمين، كلية التجارة، جامعة القاهرة، ع ٢١، ١٩٧٤م، ص ١٨٤-١٩٤.



الآثار المترتبة على الإسراف والتبذير

لا شك أن هناك العديد من النتائج والآثار السيئة المترتبة على شيوع ظاهرة الإسراف والتبذير، ومن ذلك^(٣٦):

١- الإسراف خطر على العقيدة: الإسراف يرفع مستوى معيشة الفرد والأسرة رفعاً كاذباً يفوق الدخل الحقيقي المستمر، ثم لا تكاد المكاسب الجانبية تزول ولا يبقى سوى الدخل الحقيقي. حتى يلجأ كثير من المسرفين إلى طرق شريفة وغير شريفة لاستمرار التدفق النقدي وتحقيق المستوى العالي من الإنفاق الذي اعتادوه فتمتد اليد بشكل أو بآخر فيقعوا تحت وطأة الكسب الحرام، ذلك أن المسرف قد تضيق به أو تنتهي به موارده، فيضطر لتلبية وحفاظاً على حياة الترف والنعيم التي ألفها إلى الوقوع في الكسب الحرام، وقد جاء في الحديث "كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به"^(٣٧).

٢- الإسراف نوع من التسرع والتهور: الإسراف نوع من التهور والتسرع وعدم التبصر بعواقب الأمور وقد يكون دليلاً على الاستهتار، وعدم الحكمة في تحمل المسؤولية وكل ذلك يؤدي إلى وخيم العواقب وسيئ النتائج فهو يقتل حيوية الأمة ويؤدي بها إلى البوار والفساد ويملاً القلوب حقداً وضعينة ويقضي على حياة الأمن والاستقرار كما أن فيه كسراً لنفوس الفقراء وبطراً لأهل الغنى^(٣٨).

٣- الإسراف ودواعي الشر والإثم: فالسرف داع إلى أنواع كثيرة من الشر لأنه يحرك الجوارح إلى المعاصي ويشغلها عن الطاعات، كما أنه يحرك الغرائز الساكنة أو الكامنة في هذه النفوس، وحينئذ لا يؤمن على الفرد من الوقوع في الإثم والمعصية، فالشيطان أعظم ما يتحكم في الإنسان إذا ملأ بطنه من الطعام، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: "ما ملأ آدمي وعاء شراً من

(٣٦) السيد محمد نوح:- "الإسراف أسبابه وآثاره وعلاجه" ص ١٧- ٢٧ وعبدالله الجعثن - "الإسراف وخطره على العقيدة" مجلة الدعوة - الرياض ع ١١٢٨، ٢٠/٦/١٤٠٨هـ، ص ٢٤، مجلة البيان - عواقب التبذير، لندن ع ١٣ ذي الحجة ١٤٠٨هـ، ص ٤- ٧.

(٣٧) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم ج ١/ ٣٧.

(٣٨) د. حمد الجنيدل - نظرية التملك في الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٣هـ، ص ٨١.



بطن، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه" (٣٩).

٤- الإسراف وتأثيره على البيئة: يُعدُّ الإسراف سبباً رئيسياً من أسباب تدهور البيئة واستنزاف مواردها. وهو وإن كان متعدد الصور والأساليب، إلا أنه يؤدي بشكل عام إلى نتيجة واحدة: إهلاك الحرث والنسل، وتدمير التوازن البيئي (٤٠).

٥- الترف والدعوة إلى النعومة والليونة: يؤدي الترف إلى النعومة والليونة، التي تدفع الناس إلى الرذائل، وتقعد بهم عن الجهاد والتضحية، وفي ذلك أعظم الخطر على الأمة.

٦- التبذير والهوى: التبذير مما يأمر به الهوى وينهى عنه العقل، وأحسن الأدب في هذا تأديب الحق سبحانه حين قال: ﴿وَلَا تُبْذِرْ تَبْذِيرًا﴾ (٤١). فالإنسان قد يعطى رزق شهر في يوم، فإذا بذر فيه بقي شهراً يعاني البلاء، وإذا دبر منه عاش شهراً طيب النفس.

٧- عدم الرعاية والاهتمام بالآخرين: ذلك أن الإنسان لا يراعي الآخرين ولا يهتم بهم غالباً، إلا إذا أضناه التعب وغصته الحاجة، كما أثر عن يوسف عليه السلام لما سئل "لا نراك تشبع أبداً؟" قال: أخاف إن شبع أن أنسى الجياع (٤٢). والمسرف مغمور بالنعمة من كل جانب، فأتى له أن يفكر أو يهتم بالآخرين.

(٣٩) رواه الترمذي - في الزهد، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل، رقم ٢٣٨١، وقال هذا حديث حسن صحيح، ورواه أيضاً ابن حبان وابن ماجه والحاكم وصححه الذهبي. ينظر: ابن الأثير - جامع الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط، مكتبة الحلواني، بيروت، ١٣٩١هـ، ج٧/٤١٠.

(٤٠) محمد عبدالقادر الفقي - "الإسراف وتأثيره على البيئة"، ص ٥١.

(٤١) الآية ٢٦ / سورة الإسراء.

(٤٢) أورد هذا الأثر: محمد قرة علي - سنابل الزمن، مؤسسة نوفل، بيروت، ١٩٨٦م، ص ٢٦٤.



الإسراف والتبذير في واقع الناس

إن موضوع الطعام والشراب في تاريخ الأمة المسلمة قديم وعريق، فأصوله تستمد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، كما أن كتب الفقه والرقائق والمواعظ والزهديات والأخلاق تفرد أبواباً للطعام والشراب، تنهى عن المحرمات، وتأمّر بإتباع الآداب الشرعية.

أما اليوم فقد أصبح الطعام والشراب في حياة أغلب الناس فحماً وشرهاً، وإسرافاً وتبذيراً ولذة وغاية. تُهدر في صناعة الأطعمة والأشربة الأموال، وتنصب الموائد المفتوحة في البيوت والمطاعم ويجري السباق في إقامة الحفلات والمسابقات الباذخة.

وانزلق عامة الناس إلى مساوي التقليد الأعمى للأمم المادية المترفة واتسمت حياة الكثيرين بالتكلف والإسراف في ولائهم وأعيادهم وحياتهم. حتى أصبحت أعيادنا مظاهر باهظة الثمن ورمضاننا في كل عام موسماً للترف والسرف، بدلاً من أن يكون عبادة وتهجداً.

فتحول الغذاء إلى خطر رهيب وارتفعت صيحات التحذير من مستقبل ينذر بالأخطار وباتت الحاجة ماسة للأمن الاقتصادي والاجتماعي والغذائي وترشيد الإنفاق والاستهلاك.

إن الإنسان كائن حي، يقوم بوظائف مهمة، عبادة الله ثم إعمار الأرض وإقامة مبادئ العدل والخير وهذا يجعله بحاجة إلى الطعام كي ينمو ويعيش ويتحرك ويعمل ويحتاج إلى الماء، إذ لا يستطيع الإنسان البقاء حياً مدة طويلة بدون ماء.

فاستجابة الكائن البشري لغريزة الطعام والشراب أمر فطري. كما أن المحافظة على القوام الغذائي المتنوع والتوازن مع التوسط والاعتدال يمنح الإنسان في مراحل عمره جسماً قوياً وصحة دائمة وعمرًا مباركًا ومديدًا.

إذ لا يكفي الإنسان في طعامه وشرابه أن يتناول نوعاً واحداً، فلا بد من توافر الاحتياجات الأساسية من مثل: الماء، والسكريات، والدهون والشحوم، والبروتينات، والفيتامينات وبعض العناصر المعدنية.

إن الإنسان إذا أكل ما يسد به جوعه وشرب ما يسكن به ظمأه، فإن هذا مطلوب عقلاً، ومندوب إليه شرعاً، لما فيه من حفظ النفس وصيانة الحواس.



يقول محي الدين مستو في كتابه "الطعام والشراب بين الاعتدال والإسراف" (٤٣) إذا كانت التخممة تمرض وتميت، فإن الحرمان يمرض النفس ويُفتر عن العبادة أما الوسطية فإنها تنشط النفس وتظهر روحانيتها، فالاعتدال توسط بين التقدير والإسراف وبين البخل والإنفاق الزائد عن الحلال في المأكل والمشرب.

وقد حث رسول الهدى عليه السلام على الاعتدال وحض على التقليل من الطعام والشراب، فقال عليه الصلاة والسلام "الكافر يأكل في سبعة أمعاء والمؤمن يأكل في معي واحد" رواه مسلم قال حاتم الطائي ذاماً كثرة الأكل:

فإنك إن أعطيت بطنك سؤله * وفرجك نالا منتهى الدم اجمعا

إن الاعتدال إذن، هو التوسط بين الجوع والتخممة بالتقليل من كمية الطعام والشراب دون أن ينقص عن حاجة البدن والعمل. وفي ذلك فوائد جمّة منها: صحة الجسم وجودة الفهم، وقوة الحفظ، وقلة النوم، وحفظ النفس، قال بعض العلماء: أكبر الدواء تقدير الغذاء.

وفي المقابل فإن الإقبال على الطعام بشره زايد يجعل الأغذية عند النهمين المسرفين هدفاً وغاية، يبذلون من أجلها الأموال الباهظة، ويمضون أوقاتاً طويلة في الأسواق يشتررون ألوان الأطعمة. وهؤلاء الذين جعلوا همهم بطونهم وأهدافهم ملذاتهم وشهواتهم، يرضون بأموالهم عن مساعدة بائس أو إعانة فقير فتتج عن ذلك بطون جائعة وأموال ضائعة.

إن الإسراف والتبذير والترف والمباهاة سلوكيات استهلاكية خطيرة دخلت مع الأسف حياة الناس وشملت معظم جوانب الحياة المختلفة، فهناك التنويع في الأطعمة والأشربة في الدعوات العامة والمناسبات ولوائم الأعراس التي تكلف أموالاً طائلة، وهناك الموائد المفتوحة المشتملة على أصناف عديدة، لقاء مبالغ محددة عن كل شخص وهناك اللوائم المخصصة في حالات الوفاة والمآتم.

فيا عجباً من مجتمع يقيم الأفراح واللوائم، والمجتمعات المسلمة تعاني من الأحزان والمآتم، وقديماً قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه كلمته المشهورة: "ما جاع فقير إلا بما تمتّع به غني".

(٤٣) محي الدين مستو - الطعام والشراب؛ ص ٢٧.



ورد عن القاضي عياض رحمه الله قوله: "إن كثرة الأكل والشرب دليل على النهم والحرص والشره، وغلبة الشهوة، وهي وسيلة، مسبب لمضار الدنيا والآخرة وجالب لأدواء الجسد وخثار النفس أي فتورها.

إن الإسراف في تناول الطعام والشراب يؤدي إلى اختزانها في الجسم وتحولها إلى لحم وشحم وبدانة وبطنة، تقعد بالإنسان عن كثير من أعماله ونشاطاته، وقديماً قيل: "البطنة تذهب الفطنة" وقد ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قولته المشهورة وحكمته المأثورة: "إياكم والبطنة فإنها مكسلة عن الصلاة، مؤذية للجسم وعليكم بالقصد في قوتكم، فإنه أبعد عن الأشر، وأصح للبدن، وأقوى على العبادة إن أمراً لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه.

ومن طريف القول ما أجاب به مسلمة بن عبد الملك ملك الروم حين سئل: "ما تعدون الأحق فيكم؟ قال مسلمة: الذي يملأ بطنه من كل ما وجد. وكان فرقد رحمه الله يقول لأصحابه ناصحاً: إذا أكلتم فشدوا الأزر على أوساطكم، وصغروا اللقم، وشددوا المضغ، ومضوا الماء مضاً، ولا يحل أحدكم إزاره فيتسع معاه، وليأكل كل واحد من بين يديه.

وقد أجمعت الأطباء على أن رأس الداء إدخال الطعام على الطعام، وقالوا: أكثر العلل إنما يتولد من فضول وزوائد الطعام.

إن مراتب الطعام والشراب (الغذاء) كما قسم ذلك ابن قيم الجوزية رحمه الله في كتابه "الطب النبوي"^(٤٤) مراتب ثلاثة: مرتبة الحاجة، ثم مرتبة الكفاية، وأخيراً مرتبة الفضلة.

وللأسف حتى في رمضان تزداد مصروفات الأسر لمجاهة الشراهة الاستهلاكية ونهم التسوق والإنفاق المرتفع، حتى أصبح مألوفاً في أمسيات شهر رمضان كثرة حالات الإسعاف بسبب الإسراف والتخمة.

ذات يوم أوقف الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه ابنه عبدالله (وقيل جابر بن عبدالله) رضي الله عنهم وسأله: إلى أين أنت ذاهب. فقال عبدالله للسوق. فقال الفاروق له: لماذا؟! فأجاب: لأشتري لحماً وبرر ذلك الشراء بأنه انتهى لحماً، فخرج إلى السوق ليشتري بعضاً منه، فقال له الفاروق: أكلمنا اشتھيت شيئاً اشتريته؟.

(٤٤) ابن قيم الجوزية - الطب النبوي، ص ٥٦.



إنها حكمة اقتصادية خالدة، وقاعدة استهلاكية رشيدة. خاصةً ونحن نشهد في أيامنا هذه سباقاً محمومًا يترافق معه أساليب تسويقية جديدة، وأساليب إعلانية مثيرة، ووسائل إعلانية جذابة، ودعايات كثيفة من أجل الشراء والمزيد منه.

وقد تبين من خلال تحقيقات عديدة أن شريحة واسعة من الناس تشتري ما لا تحتاج وتستهلك من المنتجات والسلع أكثر من اللازم.

يقول وليام بن: إن ما ننفق على أغراض الزينة الزائفة يكفي لكساء جميع العراة في العالم. وهكذا أصبحت حياتنا المترفة تملأ البطون بما لذ وطاب وتغذي الأرواح بأشياء فارغة وفاسدة. فكم هو سخف الإنسان الذي يتظاهر دومًا بالذكاء والمعرفة.

يقول سمايل: إن الحياة السهلة المترفة لا تدرب الرجال علي بذل الجهد أو مواجهة الصعاب ولا توقظ فيهم تلك المقدرة اللازمة للجهد الفعال في الحياة.

إن بعض الرجال يعتبر اهتمام النساء الزائد بالموضات وبضرورة التجاوب معها بأنه انعكاس لعدم تحليهن بقدر كافٍ من المعقولة في التفكير.

يقول علي غلوم: الشائع بيننا أن المرأة أكثر إسرافًا من الرجل، سواء في ملابسها أو إنفاقها، ولكن هناك من الرجال من هم أكثر إسرافًا في أموالهم وسلوكهم ومقتنياتهم، فالأمر نسبي ويرتبط بحجم ما يتوافر لدى الفرد من مغريات نحو الإسراف.

وتقول صباح المالكي في معرض حديثها عن الإسراف: من أسباب الإسراف حاجة المرأة لتملك بعض الأشياء التي ترى أنها في حاجة إليها لتجميل منزلها، أو لإضفاء البهجة على الأسرة والأبناء بوجه خاص من ألعاب وملابس واحتياجات.

وتؤدي الأنانية والنفعية الشخصية في كثير من الأسر والمجتمعات إلى الإسراف في استغلال مصادر الدخل.

ومن ثم، ظهر على الساحة هوس تسوّقي غريب وإدمان شرائي كبير، وحمى استهلاكية عجيبة، تؤجج ذلك كله إعلانات مثيرة ودعايات جذابة ومسابقات مغرية وحوافز مشجعة.

وأكثر الإعلانات أثرًا هي تلك التي يمكن إعادتها بصيغ متعددة، وفي أماكن يمكن رؤيتها من قبل أعداد كبيرة من الناس كبرامج التلفزيون المحببة للمشاهدين والصحف والأسواق المركزية.



تقول فوزية خليل في معرض مشاركتها في تحقيق حول "هوس التسوق عند المرأة" إن هوس التسوق عادةً ما يكون انفعاليًا ويمثل عند المرأة طريقة تعويض عن معاناة عاطفية، أو نتيجة حرمان أو قلق أو تعاسة زوجية، أو قلة حنان، وقد يكون هذا الهوس التسوقي عند النساء أكثر شيوعًا.

وفي التحقيق نفسه تقول بدرية المطري: هناك من النساء من يشتري أغراضًا ليست ضرورية ولا في حدود إمكانياتهن، ويدفعن بالرجال إلى دفع الكثير من أجل إرضاء رغباتهن الجنونية.

ومن أهم نتائج تحقيق أجري حول (الإعلانات التجارية والإسراف): الإعلانات تدفع المرأة للشراء والمزيد منه. كما أن المرأة تشتري السلعة عادةً على سبيل التجربة نتيجة الإعلان عنها. والمسابقات العديدة تغري الأطفال بالشراء بكثافة. ووصل التحقيق إلى نتيجة مهمة: الإعلانات التجارية مسؤولة إلى حد كبير في دفع الناس إلى الإسراف وخاصة المرأة، جرياً وراء التفاخر والمباهاة أو حباً للاستطلاع أو رغبةً في التقليد.

إن عادة التقليد بين الناس لا تقتصر على قطر من الأقطار أو جنس من الأجناس، بل إنها عادة عالمية يصعب تغييرها.

ثم إن النفس البشرية نفس لا تشبع، وفي الوقت نفسه لا تقنع، فهي طُلعةٌ لكل نوع، متشوقة لكل شكل، فضولية لكل لون.

نعوذ بالله من عين لا تدمع وقلب لا يخشع، ومن نفس لا تقنع، ومن بطن لا يشبع، ومن دعاء لا يستجاب له.

فالتخمة، والسمنة، والسرف، والتبذير، والترف والتبديد، والاستنزاف وتلال النفائات والقمامة. والشائيات الاجتماعية، والترهل، واللامبالاة، وكفر النعمة... ما هذه إلا بعض آثار لا شك أنها تتولد من السلوك الشرائي غير المنضبط، ومن الإدمان الاستهلاكي غير المتزن ومن الإنفاق البذخي غير الرشيد.

إن صناديق القمامة تشهد أكياساً من الزباله وألواناً من النفائات المتزلية أشبه بالتلال نتيجة الاستهلاك المتزلي الشره، وصدق من قال إنَّ الاستهلاك هو طوفان التلوث القادم.



فإذا أضفنا إلى ما سبق شُيوع أخلاقيات الأنا والحسد والجشع والمباهاة والتقليد وكسر قلوب الفقراء والمساكين والمحتاجين واختلال الميزانيات الأسرية والاستدانة.. فإن هذا كله يستلزم أن نقف في وجه الوحش الاستهلاكي والغول الشرائي والإدمان الإنفاقي والهوس التسوقي من أجل أن نغلق وبشكل نهائي الملف الأسود للاستهلاك في كل بيت، وعند كل أسرة، وداخل كل مجتمع.

إننا لو جمعنا كل ما ينفق على الأمور التافهة في صندوق موحد، ثم أنفق هذا على إزالة أسباب المأساة من حياة الكثيرين، لصلحت الأرض وطاب العيش فيها.

وإذا تمثلت أعمالنا بالتدبير وحسن التصرف فإننا نستطيع التخلص من النقيضين وهما الإفراط في الإنفاق والاستهلاك، وحالات العوز والفقر، إذ يمكن للأول سدّ حاجات الثاني، بحيث يقترب النقيضان إلى معدل معقول.



معالجة ظاهرة الإسراف والتبذير

إن الاعتدال هو جوهر الإسلام في كل الأنشطة البشرية، فالإسلام ينهى عن التقدير كما ينهى عن الإسراف وعن الاستهلاك حباً في الظهور.

وقد حدد القرآن الكريم والسنة النبوية استهلاك المسلم بما لا يوصف بالإسراف والتبذير، بحيث تتناول الخريطة الاستهلاكية على مستوى الأفراد (المأكل، والمشرب، والملبس، والمسكن، والزينة، ووسائل النقل، وتكاليف الزواج وأجور العمال..) وبحيث تنضبط بمنهج رسول الله صلى الله عليه وسلم - القدوة الحسنة.

ومن ثم، فينبغي على المسلم الالتزام داخل هذه الخريطة الاستهلاكية بما يلي:

- ١- الناحية الاقتصادية لا تملك المؤمن بل يواجها بعقيدته ومُخلقه.
 - ٢- الاستهلاك في حدود الوسط والاعتدال.
 - ٣- تجنب الفخر والخيلاء.
 - ٤- الابتعاد عن الحرام.
 - ٥- ترشيد وتنظيم الاستهلاك.
 - ٦- تناول المنتجات الاستهلاكية وادخارها عند اليسر والرخاء.
- كما أن المستهلك المسلم يتحرك داخل مناطق استهلاكية محدّدة شرعاً، تتراوح ما بين الإباحة والحُرمة.

أولاً: منطقة القوام (الوسطية والاعتدال):

وهي منطقة مباحة، إذ هي وسط بين الإسراف والتقتير ووسط بين الزينة والورع، وأكثر الناس لا يأخذ بها، إذ هم يميلون غالباً إلى الزينة ويتجاوز بعضهم إلى الترف والسرف والتبذير، وأصل هذه المنطقة قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [سورة الفرقان، الآية: ٦٧].

وقوله عليه السلام "كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا من غير إسراف ولا مخيلة" حديث حسن أخرجه أحمد والنسائي.

ثانياً: منطقة الزينة: (الطيبات وإظهار الغنى):



وهي منطقة مباحة يقول تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [سورة الضحى، الآية: ١١]. ويقول عز وجل: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ٣١].

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده" حديث حسن - أخرجه الترمذي، ومن هذه المنطقة التحدث بالنعم والرفاهية على ألا يخرج المستهلك المسلم إلى منطقة الترف المنهي عنه.

ثالثاً: منطقة الورع (التقشف والزهد):

وهي منطقة مباحة ورغم أنها منطقة محمودة، بيد أن الذين يستطيعون المكث فيها قلة من الناس، ويأتي على رأس هذه المنطقة الأنبياء عليهم السلام، والزهاد الأوائل، وقليل من المتأخرين، إذ في هذه المنطقة كثير من التضحية بالدنيا ومباهجها، وإيثار الآخرين على النفس، ولو تيسر ذلك لأمكن حل المشكلات الاقتصادية، وأصل المنطقة قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [سورة الحشر، الآية: ٩].

رابعاً: منطقة التقير (البخل والشح):

البخل عدو لنفسه، وعدو لكل ما ينفع الناس، حتى لو وصلت به الحال إلى الزهد الأعجمي وحرمان نفسه من الضروريات، وأصل هذه المنطقة قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [سورة محمد، الآية: ٣٨]. وقوله عليه السلام: "إياكم والشح، فإنما هلك من كان قبلكم بالشح، أمرهم بالبخل، فبخلوا، وأمرهم بالفجور ففجروا" حديث صحيح على شرط مسلم كما عند الحاكم في المستدرک، وأخرجه أبو داود.

خامساً: منطقة الإسراف (التبذير والترف):

وهي منطقة محرمة، قال تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ١٤١].

وقال عز وجل: ﴿وَلَا تُبْذِرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [سورة الإسراء، الآيتان: ٢٦، ٢٧].



وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن من أشرار أمتي الذين غدوا بالنعيم، الذين يطلبون ألوان الطعام، وألوان الثياب، فيتشققون بالكلام" حديث صحيح، أخرجه الحاكم وأحمد.

والتبذير أشد من الإسراف، فهو مغالاة وتجاوز للحد المعروف، وتوسع في الإنفاق المحرم، وعلى المعاصي والشهوات المنكرة، كما أن الترف أشد من التبذير إذ يتوسع المرء المترف في ملاذ الدنيا وشهواتها.

وإذا انتشر الترف في الأمة أودى بها إلى الفناء، ومن هذه المنطقة إضاعة المال، والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم نهي عن إضاعة المال كما روى ذلك الشيخان. وانسجاماً مع أسلوب ومنطقة الاعتدال والقوام، وبعداً عن أسلوب ومنطقة الإسراف والتبذير وضع الإسلام قيوداً نوعية وكمية وقعد قواعد حاكمة للعملية الاستهلاكية ومن ذلك:

(١) النهي عن حياة الترف: والترف هو المبالغة في التمتع، والمترف هو المتنعّم المتوسع في ملاذ الدنيا وشهواتها، والإسلام لا يجذ الترف بل يعده سلوكاً غير سوي وسبب في نزول العذاب وهلاك الأمم ودمارها، ومؤشراً عن الابتعاد عن الطريق القويم، وعلامة على تخلخل كيان المجتمع واهتزازه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [سورة الإسراء، الآية: ١٦].

(٢) النهي عن الإسراف والتبذير والسفه: والإسراف - كما بينا - هو تجاوز القصد والاعتدال في الإنفاق وهو ما دون الترف. أما التبذير فيعني إنفاق المال وتفريقه إسرافاً في غير ما ينبغي. والسفه ضد الرشيد. وقد نهي الشرع عن الإسراف والتبذير لما ينطوي عليهما من تبديد غير واعٍ لموارد الفرد والمجتمع.

(٣) الأمر بالاعتدال في الإنفاق: بحيث يكون المسلم متوازناً بين مصالح الدين والدنيا والروح والمادة. فالنهي عن الترف والإسراف والتبذير، لا يعني الدعوة إلى البخل والشح والتقتير، إنما يعني الدعوة إلى الاعتدال. لما لذلك من آثار إيجابية على الفرد والمجتمع، فإذا كان البخل يقود إلى نقص الميل للاستهلاك، فإن الترف والإسراف يقودان إلى تبديد الموارد وإتلافها، وكلاهما آفة.



(٤) الابتعاد عن استهلاك المنتجات المحرمة والضارة: ويعني هذا أن تكون المنتجات من الطيبات المتصفة بالحسن والنقاء والطهارة فقد أحل الله الطيبات وحرم الخبائث. والقاعدة الفقهية تقول: لا ضرر ولا ضرار.

(٥) عدم المباهاة والخيلاء: إذ الإسلام ينظر إلى الإنفاق الاستهلاكي باعتباره قوام المجتمعات، ومن الواجبات الاجتماعية. ومن ثم، فينبغي أن يحذر المسلم من أن يُدخل إنفاقه مباهاة أو خيلاء. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٦٤].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرّ ثوبه خيلاء" متفق عليه.

(٦) تذليل النفس البشرية بالجوع: لتضييق مجاري الشيطان. فالنفس البشرية إذا شبت تحركت وجالت وطافت على أبواب الشهوات، وإذا جاعت سكنت وخشعت وذلت.

وقد ورد عن جمع من العلماء والفقهاء^(٤٥) أن في الجوع فوائد جمّة ومن ذلك:

أ - صفاء القلب ونفاذ البصيرة.

ب - زوال البطر والأشر.

ج - تذكّر بلاء الله وعذابه.

د - كسر شهوات المعاصي.

هـ - المواظبة على العبادة.

و - الإيثار والتصدق بالفضل.

(٧) التربية الاقتصادية: وذلك على حسن الإنتاج والكسب وحسن الاستهلاك والإنفاق، وحسن التوزيع، وفي هذا المقام يمكن أن نستأنس بما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يربي أصحابه عليه، ومن ذلك:

(أ) التربية علي أن الغنى غنى النفس: جاء في حديث أبي ذر رضي الله عنه، قول رسول

الله صلى الله عليه وسلم له: "أترى كثرة المال هو الغنى؟ قال أبو ذر: نعم، وترى قلة المال هو

(٤٥) ينظر: الجوع - ابن أبي الدنيا، ص ٢٠ - ٦٠، إحياء علوم الدين - أبو حامد الغزالي، ج ٣/ ٩١ - ١٣٠.



الفقر؟ قال أبو ذر، نعم. فقال له رسول الله: إنما الغنى غنى القلب، والفقر فقر القلب" حديث صحيح. ومعنى ذلك عدم تقبّل المال من كل سبيل، وعدم إنفاقه في كل سبيل وبأي مقدار.

(ب) التربية على العمل وكسب العيش: جاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: إن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم، حتى نفذ ما عنده، فقال: "ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم، من يستعفف يعفه الله، ومن يستغني يغنه الله ومن يتصبر يصبره الله" رواه البخاري. ومعنى ذلك أن الوسائل النفسية المهمة: التعفف، والاستغناء، والصبر.

أما الوسيلة المادية فهي العمل كما في حديث "لئن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بجزمة الحطب على ظهره فيبيعها فيكف بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه" رواه البخاري. ولهذا كان أهل مكة يعملون في التجارة في مكة، وبالزراعة في المدينة.

(ج) التربية على الاعتماد الذاتي والاكتفاء بالدخل الشخصي: جاء في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قول رسول الله صلى الله عليه وسلم "فراش للرجل وفراش لامرأته، والثالث للضيف، والرابع للشيطان" رواه مسلم. ومعنى ذلك تقليل المصروفات حتى لا يحتاج المرء إلى الاستدانة إلى الآخرين وليكتفي ذاتياً بما عنده.

(د) التربية على العطاء: جاء في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قول رسول الله صلى الله عليه وسلم "اليد العليا خير من اليد السفلى، واليد العليا المنفقة والسفلى السائلة" رواه مسلم، ومعنى ذلك رفع المستوى الاقتصادي للمجتمع، بحيث يكثر فيه المعطون، ويقل فيه الآخذون.

هذه أهم معالم التربية الاقتصادية التي نشأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه عليها، ورباهم على الأخذ بها ودعاهم إلى سلوكها فآتت ثمارها على الصحابة رضوان الله عليهم، وعلى المجتمع المسلم، وكان لها صداها في مجال الدعوة إلى الإسلام.

وحريٌّ بنا نحن أن نقتدي برسولنا ونتمثل تلك المعالم التربوية سلوكاً واقعياً وعملياً. إن على المسلمين أن يحجموا عن أيّ نمط سلوكي يدمر هذه القيم والمعالم والآداب. فأيّ نفقة بنية التباهي أو إظهار الأبهة أو الخيلاء، لا بد وأن يكون من شأنها توسيع الهوة الاجتماعية بين الأغنياء والفقراء في المجتمع المسلم الواحد.



إن نمط الإنفاق السليم والمتفق مع الآداب الشرعية هو ذلك الذي يحكي البساطة والتواضع والاعتدال. ولا يعني ذلك عزوف المسلمين عن الاستفادة من دخلهم، أو من الموارد التي امتن الله بها عليهم، لسد حاجاتهم أو عن تزويد أنفسهم بأسباب الراحة. لكن الإسلام يتطلب إعطاء الاستهلاك جدوى وجودة أعظم. كما يأمر بتجنب أسلوب الحياة القائم على الغرور والخداع، لإشباع الميل الشديد إلى تقليد الآخرين. إن المنافسة غير الصحيّة على رموز الأبهة والمصحوبة بعدد من العادات، لا سيما في مناسبات الزواج، إنما تؤدي إلى الإنفاق المفرط الذي يتم تمويله إما بتعطيل استثمار ما سبق ادخاره أو بمنع ادخار المستقبل. ولا تلبث العدوى أن تصيب كل المناخ الاجتماعي. إن المسلم مطالب بالاعتدال والتوازن والابتعاد عن كل مظاهر الفساد والترف والإسراف والتبذير، آفات المجتمعات.

